محمد الشركي

نَبْتَةُ البُرْكَان

علينا، قالت، أن نتلافى الطريق المُباشر، لأنّه مليءٌ بالحُفَر، وما دُمْتَ راغباً في أن نشرب الشّاي بمقهى رأس الماء في هذه اللّيلة بالذات؛ سيكون علينا أن نسلك طريق وادي أمليل، ثم نتوغّل في الحزام الغابوي لباب أزهار، ومن هناك ننحدر عَبْر طريق المغارة صوب المقهى، وبعد أن ابتسمتْ بتهورُّها التّدشيني، أدارات مُحرّك سيارتها وأضاءت المصابيح وانطلقنا مخفورَيْن بعطرها الانقلابي، ومن جهاز الكاسيت يتصاعد عويل ميريام ماكيبا الذي يوقظ نمور وعظايات قارّة بأكملها، عويل قيامي، شهواني، من الفصيلة القادرة على إحياء عظام الموتى، وإرواء جذور الخلنج الصّحراوي، وتفتيت أحشاء الصخور، حرصتُ، قالت، على افتتاح مسارنا بهذا الصّوت المُقَدَّس لأنني أعرف انجرافاتك الجنوبية، حتّى إنّني غالباً ما شعرتُ بأنّكَ تعيش الشّمال كجنوبٍ آخر، أو على الأقلّ كردهة تحضيرية له، أعني لستَ نظامياً، أو مُنْضَبِطاً، أو عقلانياً، وهذه حالة من حالات خطّ الاستواء حيث يُمارِس نجم زُحَل سطوته العنيفة، لذلك تبدو لي أحياناً غير راضٍ على موقع فاس في وسط الخريطة، كأنّك تتمنّى لو كانت أسفلها، قُرْبَ رمال العرقوب مثلاً، مع احتفاظها بكيميائها التّاريخية والجسدية والنّباتية، هل تعرف بأنّ مرّاكش أقرب إلى هندسة دمكَ من أيّة مدينةٍ أُخرى، إنّها مزيجٌ مكتملٌ من مُدُنِك اللاّمرئية، وتركيبٌ متوازنٌ من رزنامة أزمنتك، أجلْ، قلْتُ لها، ونحن نقترب من ممرّ الظواهر، درب الرّياح الشّهير، ليتني أقمتُ بمرّاكش ردحاً من الزّمن، كنتُ سأصغي أكثر لنسب الطّين الأحمَر، وعروق النّخيل المقدّس، وشبق السّواك والحنّاء، ونداء بائعات الخبز الطّالعات من زمن آخر، كنتُ سأقتربُ ذات ليلةٍ من الظلّ الوثني لزينب النفزاوية التي لم تمنعها زيجاتُها الثّلاث في أعماق الصّحراء من الهجرة ودخول مُرّاكش لتتزوج هذه المرّة يوسف بن تاشفين بالذّات، كأنّها كانت تتمرّن في أزواجها السابقين على تحضير جسدها للمقام الملكي، والغريبُ أنّ مؤرّخي السُّلالة المُرابطية لم يتوقّفوا عندها، مع أنّها كانت تشعّ بوجهها الصّحراوي، المجبول بطقوس العِرافة في كهوف الحمادات، والمكتمل كوردةٍ مغناطيسية في لَيْلِ المُلْك، حتّى إن ابن تاشفين كان يلتمس منها النُّصح والمشورة ، لكنّ مؤرّخي السُّلْطة وضعوها في منطقة الظلّ، كما ألقوا لاحقاً بعائشة الكونتيسة في وهاد الخرافة، متوهّمين إبطال المفعول الأنثوي في الطبقات الجوفية للتّاريخ المغربي، معكِ حقّ، قلتُ لها، وكانت أضواء واد أمليل تتراءى في البعيد، بين الأخاديد القاتمة للأطلس المتوسط والسُّهول الليلية المجاورة لسفوح الرّيف، قد تكون مُرّاكش أقرب إلى هندسة دمي: لأنّني تشممتُ فيها حقًّا، كما في فاس على أية حال وكما في تازة وطنجة والصويرة وأصيلة وشفشاون، تلك الرّوح الأنثوية الأبدية، روح الأعماق، روح القوانين السُّفلى، بحراقيصها، وكيمياءات طبخها، واشتعال نسائها، وشهوة تُرابها، وحنان أسْوارها، وأُمومة أصواتها التي رفع لها كانيني نشيداً بحجم امتدادها الزّمني، مديحاً على شرف العابر الذي يتحوّلُ فيها إلى أبدي، أريد، قالتْ، أن نتوقّف برهةً بواد أمليل لنشتري شواءً نأكله في الطّريق، ثم إنّ السّجائر نفدت، والسجائر أمرٌ هامٌّ، خاصّةً لذوي الأمزجة النّارية مثلنا، سامحني على مقاطعة انخطافكَ المُرّاكشي، ولو أنّني أري أنّك مُؤَهَّلٌ للانخطاف في كلّ مكان، أعني أنّكَ لا تنتسبُ في الأخير إلاّ لإقليمكَ الباطني، وأنّ حديثك عن المُدُن هو نوعٌ من الطّواف قربه، نوع من الاستهلاك لعتباته وروائحه وأصواته القُصْوى، لكنّ هذا الإقليم، في المُقابل، يبقى مُتَعذّراً إذا لم يغمس شرايينه في أرحام الجغرافيا ونسوغ اليومي وقنوات الآخر، أعترف معكَ بأنّ الكتابة، كالحب، بابل صعبة، إيثاكة مؤلمة، ولا تملك إلاّ أن

تستمرّ إذا شِئتَ ألاّ ترتدي قميص الصُّوف الذي كانوا يُلْبِسونه لِجَانين القرون الوسطى، تستمرّ لا لكي تحمي عقلك، بل لكي تذود عن جنونك الكبير، هيّا، قالت وهي تُخفّض من سرعة السّيارة، لنتوقّفْ قرب هذه المشواة، تكلّفْ أنت بالسّجائر، كانت أدخنة القتار تتصاعد أمام واجهة المقهى، ولمّا عبرتُ جرف الملح، واجتزتُ زحمة الموتى، رأيتها في جبل المطهر، بين السمالك الصّخرية المحفوفة بزهور العناقية وشبّ اللّيل، كانت، مثلي، قد خرجتْ لتوّها من الجحيم، ومع ذلك حدّثتني، فيما يشبه الذّكرى، عن مائدة النكتار، شراب الآلهة، وشجر الكمثرى الفردوسي، وعسل الصّخور التي تحفّ أنهار جهنّم، ثمّ توغّلنا في الطريق الضيّق والمعتم الذي يخترق غابات باب أزهار، من المحتمل، قالت، أن نصادف أحد الخنازير البريّة الضّالة، أو أحد الذّئاب، كم أودّ رؤية الذّئب عن كثب، لعلّني أفهم المكان الذي يتصاعد منه عُواؤه القمري، وأفهم عزلته، عزلة الأدغال، والامتداد الملحمي لاسْمِه، أشعلتُ سيجارة وناولتها إيّاها، وأشعلتُ أُخرى لي، وما لبث أن تصاعد صوت باجدّوب، بُشْرَى لنا نلنا المُنَى، والقَدْرُ مرفوع، الفرحُ أقل والهنا، والشّمل مجموع، لزمْنا الصّمت العميق، وحوّلْتُ بصري إلى النّافذة التماساً للفضاء اللّيلي، لأنّ المَسَرّة الرعناء، الهاجعة بداخلي، أخذت تتصاعدُ،، بل تتفاقم بزخمها الانفعالي، مَسرّة حمقاء، حُدودية، قصوى، مُنْهِكة، من عيار تلك المَسَّرات التي تُهَجّجُ الجَسَدَ بأكمله، والفكر بأكمله، فمددتُ يدي، حتّى لا أتلكّم، وضغطتُ على ذراعها، وكانت الأشجار السّوداء تتراجع كما في نسيج الحلم، وتخيّلتُ الأجرف المُزهرة أسفلها، والأخاديد المختنقة بالورد البرّي، ومفارخ الطّيور الأمومية، وطراوة الدُّوم الأخضر السّهران على جحور الأرانب، ولمعان ديدان الحباحب تحت شجيرات العوسج، وآلاف المُصاهرات المنعقدة السّاعة في آلاف البُؤَر اللاّمسموعة، مِلْتُ إليها وقَبّلتُها فأحسستُ بها ترتجف، لا أعرف ماذا داهمني، قالت، شعرتُ قبل برهةٍ بانجذابٍ مُتَوتر نحو منطقة مجهولة، ليس بسبب هذه المقطوعة الأندلسية الفادحة فحسب، بل أيضاً بفعل مزيجٍ ملتبس من الصُّوَر الدّفينة والاشتهاءات المفعمة بالتّهوُّر والارتماء، وقُلْتُ لماذا لا أموت الآن، وأنتَ برفقتي، نموت معاً وندخل يداً في يد إلى الجهة الأخرى لهذه اللّيلة، نوقِفُ السّيارة ونرتمي داخل أحد هذه الأجرف السّحيقة، نُسَمدُ بجسدَيْنا المخبولَيْن ذلك التُّراب الصّديق الذي يفهمنا، نُسَمدُ سَهْلَ الموت الفسيح، نمدُّ الأصابع والجفون إلى ما وراء الرّغبة، ما وراء الأرق الذي يُسَمّونَهُ عَيْشاً، نعبر المرآة العضوية كزَوْجِ فرعوني مُتوجهٍ إلى عَرْش الأعماق، ننام في السّرير النَّهْري الذي تتخلّقُ فيه اللغات، والمواجع، والأعراس، والنجوم، والأملاح، والبراكين، والأعشاب، والأجِنَّة، والأقْمار، والصَّرَخات، والأعناب، والذبائح، والتّيجان، والأرمدة، والزنابق، والسياط، والعطور، والرّمال، والأثداء، سرير الجذور حيث تُسْبِتُ البطاريق القُطْبية والسّلاحف الإفريقية، وتتزاوجُ الجنّياتُ والأشباح، وتخبز الأُمّهات قمح القيامة، ضغطتُ على ذراعها أكثر فأوقفتِ السّيارة على حافة الطريق، وأطفأتِ الأضواءِ شعرتُ بأنّ انخطافها اللّحظي أنهكها وأنارها في آن، غالباً ما اعتقدتُ، أضافتْ، بأنّ أعمق روايةٍ كتبتها فرجينيا وولف هي ارتماؤها في النّهر، كأنّ النّهر هو حَفْلُها الباقي، دار سِرّها الصَّعب، مهد جنونها المزمن، خطيبها البدائي، ارتمت في الماء، ربّما لتصعد المجرى نحو فم الجرح، وحتّى الآن لا تزال تطوف، بجسدها المُثْخَنِ بالكلمات، في أنهار العالم، سيجارتان واحتضانات رؤوم، همسات وثنية، ارتخاءات موجعة، ترنُّحات في الظّلام العضوي، ظلام الرغبة المجبولة بالدّم الوحشي، ظلام الجسد المستعاد، ظلام الوردة الصّوفية المتضّوعة برهافةٍ في شرفات العين المُغْمضَة، وما من مَجْدٍ سوى مَجْدِ الأصابع المُوقِدَة لفوسفور العظام، ما من مجدٍ إلا للأظافر المتحوّلة إلى مجسّاتٍ مُكهربة، للشّعر المُضمّخ بعود النّوار، للرّضاب الرّطيب، للأزمنة المُتَقاطعة في شهقة واحدة، وللصّمت غير الصّامت الذي حلّ بعد ذلك، صمت حريري وصخري في آن، صمت الحجر المرجاني المُزْهِر في عرصات البحر، ثم استأنفت السّيارة سيرها، تباريح ناي هندي من شاطئ الكاريبي، وتلاحقت المنعرجات الحادّة، غادرنا الغابة السّوداء، غابة السهروردي المقتول وكورتازار، بغتة تذكّرتُ ساباطو وحديثه عن الصّحراء العربية كغابة غياب، ساباطو الذي وجّه ذات يوم رسالة إلى الرّئيس الأمريكي يقول له فيها: «ما السّبيل إلى إقناعكم يا سيادة الرّئيس بأنّنا لسنا قطيعاً من الثيران؟»، بدا الطريق الضيق غائصاً في عتمة الهضاب البركانية، ناولتني تُفّاحةً بعد أن قضمت منها، تركنا المنعرج الصاعد إلى المغارة على يسارنا، لو لم يغلقوها بذلك الباب الحديدي الغبي، قالت، لهبطنا الآن، اللّيل هو زمنها ومدارها، نهضتِ الملكة القديمة، دفينتُها، ونفضت الغبار عن ثوبها الآرامي، ونفختْ في قرن الخصب فاجتمعت الأبقار الكنعانية بضروعها الملأى باللبّن الأمومي، دبّت الحياة في تماثيل المعبد ونزف الدّم من النقوش المحفورة في أعمدة الصّوان، تمدّدت البغايا المُقدّسات على الأسرّة المعتمة وفَرّ سرب من الإوزّ الحبشي متبوعاً بآبيس، الثور المُقَدّس، اقتربْ منّي، قالتِ الملكة، آن الأوان لتهبط إلى كرومك السّفلى، إنّها بعيدةٌ، قُلت لها، ودونها مفاوز وأعطاب، آن الأوان، ردّدتْ، كأنها لم تسمعني، اذهبْ

إلى تلك المرأة السهرانة في عمق الحديقة وقُلْ لها أن ترشدكَ إلى موطن أعنابك، التمسْ هدايتها ولن تخيب، غفوتَ قليلاً، قالتْ لي، نحن نقترب من المقهى، أرجو أن نجد من يعدّ لنا الشّاي في هذا الوقت المتأخّر، هذه ساعة المجرمين والمهرّبين وقُطّاع الطرق، غريبٌ أنّ الخوف لم يُساورنا لحظةً، ربّما لإحساسنا السّرّي بالانتساب إليهم، ثمّة في أعماقنا جريمة عَظِيمةٌ تحمينا من غباء الاستقامة، جريمة رؤوم تضعنا في مَنْجَى من القتلة الحقيقيين، تربط الجسد بعهده الأُلوفي ومن ثمَّ تُعلمه الشفاء من الأمكنة التي يستهدفونه فيها، خفَّضَتْ من السُّرعة ومالت بالسّيارة إلى اليمين، دخلنا باحة المقهى المُحاطة باللّبلاب البرّي وأشجار البرقوق، نفختْ في البوق ثلاثاً وأوقفت المحرّك، في الرّدهة الضيقة، وجدنا أحدهم قادماً يستطلع الأمر، بدا متذمراً ومندهشاً في آن، الشاي غير ممكن، قال لنا، أغلقنا منذ مغيب الشمس، همّ بالعودة فنفحناه بعشرة دراهم، تردّد قليلاً ثم أخذها وتقدَّمَنا إلى الشرفة الخالية، غاب هُنَيْهة وأخرج لنا مائدة وكرسيين، سأُحْضِر النعناع من الحوض، قال، واختفى في منحدرٍ معتم، فوقنا تدلّت أعراشُ شجرةِ كرزٍ كان الهواء الليلي يهزّ أوراقها، قطفنا بعض الكرزات النّاضحة وجلسنا، سمعنا هدير المياه المتدفّقة بين الأخاديد الصّخرية، ولاحت النجوم شموعاً سماوية خضراء تتناثر على السفوح الطبّاشيرية لجبال الرّيف، جفناها مرتخيان من جديد، أهدابها الوُطْف مُشبَلَة، وجهها الغرائبي مبهور بالسّهرة، سيّدة مُسَهَّدَة منذ ألف عام، متردّية كلّ ليلةٍ داخل ألْفِ هاوية، راعية أغنام الموت في سهول ديمتير، حارسة الزيتون بالوادي المقدَّس طُوَى، كاهنة مجوسية تَسْجُدُ للنّار وجسدها نارٌ، لهيب لا يخبو أوراه، ناقة فرعونية تخبّ في صحاري الدّم، فراشة ليلٍ مهما طال عمرها قصير، بريئة وداعرة وطفولية، زهرة شوكران سامّة، نبتة أنيسون، قِطّة آشورية وحرباء، فغمتْ أنْفَيْنا رائحةُ الشّاي المُطيَّب بزهر البرتقال، سيجارتان أُخريان ورشفات مرتحلة إلى جذور النعناع المُلْغِزة، يقظاتٌ من طرازٍ آخر، مواثيق نباتية وتُرابية، مثلما يقع في الأصقاع البعيدة، قالت، كحفل الشّاي في بوابات الجحيم، وها نحن نشرب الشاي وكلّ شيء حولنا دمار، قيامة، نُشور، جميع البِنْيات تتساقط، جميع الرّهانات، والحِداد في كلّ مكان، لكنّه حِدادٌ آخر من أجل الأحياء قبل الموتى، الأحياء الموتى، الأحياء العابرين من القبور إلى القبور، من المَهاجر إلى المَهاجر، من الكبريت إلى الجمر، ولا نملك سوى الخيارات الصّعبة، مثل الابتهاج وسط الحريق، والحُبّ، لأنّ الحُبّ صعبٌ لو تدري، لا يقدرُ عليه سوى القلائل، لا نملك سوى أن نبتهج ونُحِبّ لكي لا نموت، هات كأسك ثانيةً، انتهيتُ البارحة من قراءة بعض النّصوص اليابانية لكلٍّ من كواباتا وميشيما وتانيزاكي، هزّني جمالها الفادح، وتملكني إحساسٌ مُماثل للّذي داهمني قبل قليل في الغابة، أدركتُ ذلك الخيط المُرْهف الذي تتلامسُ عنده الحياة بالموت، وفهمت لماذا كان بعضهم منذورين للاختفاء الإرادي، أجل، قُلْتُ لها، عندما أفكّر في كواباتا وميشيما وتانيزاكي ودازايي وأكوتاغاوا، تتراءى لي سلالة أطفالٍ رفعوا الكتابة إلى لعبةٍ كبرى لا يوقفها قانون، أطفال أورفيوس البدائيون، أطفال كوكتو الرّهيبون، خَلْفَهُم بضع جُزُرٍ بركانية مضاءة بالأملاح والنّيران، ضجّة الامبراطوريات المتنائية وسيوف السّاموراي تلمع في غسق المِرزّات، خلفهم اليتم البحري وأمامهم إشارات الدّم البعيد، لديهم تجد الكتابة نفسها وجهاً لوجهٍ مع مصيرها النّائي نفسه كالتحاق بالأعمق والأخطر، إليكِ فقط رزنامة العناوين التّالية: الغابة المزهرة، بلد الثلوج، مديح الظّل، بيت النائمات الجميلات، اعترافات قناع، الكينونة امرأة، بحر الخصب، الموت في الصيف، عطش للحب، رزنامة تُعلّمنا أنّ الكائن لا يرتَدُّ ولا يُخْتَصَرُ في أنظمةٍ معرفيةٍ أو أخلاقية أو اجتماعية، بل يرتَدُّ في النّهاية إلى عطش أعماقه، يمكننا تلمُّس هذا سواء في «بلد الثلوج» لكواباتا، هذا النشيد الذي بحجم الإنسان، أو في «الموت في الصّيف» لميشيما، حيث يتجاور دم العاشق بدم العشيقة في عرسٍ نهائي لن تُنيره أية شمس، كما يمكننا تلمُّس كل الاستدعاءات العناصرية التي يمكن للكتابة أن تحرّكها: حيثما أمسكنا الأوراق يتضوّعُ عطر الأرض اليابانية، تبهرنا الثلوج الصاعدة نحو غابات الأعالي، يخطفنا اخضرار الظل في المِرزّات، ويزوبعنا الجمال الطقوسي للأنثى اليابانية العابرة من حقل السراخس إلى مناسك الدّم وأعياده، رشقاتٌ أخيرةٌ ويدها اللاّمعة في قلب الليل، بين خشب المائدة وحافة التّبغ، يدها البدائية العليمة، الرّخوة والصّلبة في آن، يد فرجال المتحكّمة في أبواب جهنم السّبعة، يد عشتار الممسكة بزمام ثور السّماء، يد إيزيس الباحثة عن قضيب أوزيريس المنثور في منابع النّيل السُّفْلَى، يد الأَمَةِ والمولاة، الحاضنة والدّافنة، سحبْتُها وفتحت الحقيبة الجلدية الصغيرة، أخرجتْ قارورة عطر أُوبْيوم الإجرامي وضمّخت نحرها، ارتجّ المكان، تصدّعت شقوق العتمة وارتجف الميّت في قبره، تلألأت الشّامة السّوداء في نحرها الذّبائحي، نحر الظبية الجاهلية، هَلُمَّ بنا، قالت، فطريق العودة صعب، طريق العودة دائماً صعبٌ، قلتُ لها، لأننا نعود بعد مِيتةٍ ما، تقمُّص ما، تناسخ ما، نعود موشومين بأخدودٍ جديد لا نراه وهو يرانا ويسهر علينا أخدود رحيم كذاك الذي تحفره النبتة اليتيمة في قلب البركان.